الفصل الثالث

الحياة الجاهلية

١

الأحوال الاجتماعية

كانت القبيلة فى العصر الجاهلى تتألف من ثلاث طبقات : أبناؤها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب ، وهم عمادها وقوامها ، والعبيد ، وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة ، والموالى ، وهم عُتَقاؤها ، ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها لكثرة جرائرهم وجناياتهم ، وكانوا يعلنون هذا الخلع على رؤوس الأشهاد فى أسواقهم ومجامعهم ، وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره ، وبذلك يصبح له حق التوطن فى القبيلة الجديدة ، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها ، مثله مثل أبنائها .

ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة ، وكانوا يمضون على وجوههم فى الصحراء ، فيتخذون النهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم ، على نحو ما نعرف عن تأبط شرًّا والسُّلَيْك بن السلكة والشَّنْفَرى . على أن منهم من كان يظل فى قبيلته لفضل فيه مثل عروة بن الوَرْد ، وكان كريماً فياضاً ، وأُثر عنه أنه كان يجمع إلى خيمته فقراء قبيلته عَبْس ومعوزيها ومرضاها ، متخذاً لهم حظائر يأوون فيها ، قاسماً بينه وبينهم مغانمه[1] .

وهذا الخلع إنما كان يحدث فى حالات شاذة ، أما بعد ذلك فإن أفراد القبيلة كانوا متضامنين أشد ما يكون التضامن وأوثقه ، وهو تضامن أحكم عُراه حرصهم على الشرف وقد تكونت حوله مجموعة من الخلال الكريمة ، لعل خير كلمة تجمعها هى كلمة المروءة التى تضم مناقبهم ، من مثل الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللئيم والغَضّ عن العوراء .

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣/٧٨ ومابعدها .

ولم تكن خصلة عندهم تفوق خصلة الكرم ، وقد بعثها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإمحال فكان الغنى بينهم يَفْضُلُ على الفقير ، وكثيراً ما كان يذبح إبله فى سنين القحط ، يطعمها عشيرته ، كما يذبحها قرير العين لضيفانه الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه . ومن سُنَنهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلا على الكُثْبان والجبال ، ليهتدى إليهم التائهون والضالون فى الفيافى ، فإذا وفدوا عليهم أمَّنوهم حتى لو كانوا من عدوهم . ويدور فى شعرهم الفخر بهذه النيران وأن كلابهم لا تنبح ضيوفهم لما تعودت من كثرة الغادين والرائحين ، يقول عوف بن الأحوص[1] :

ومستنبحٍ يخشى القَواء ودونه ... من الليل بابا ظُلمةٍ وسُتورها[2]
رفعتُ له نارى فلما اهتدى بها ... زَجَرْتُ كلابى أن يَهِرَّ عَقورُها[3]
فلا تسأَلينى واسأَلى عن خليقتى ... إذا ردَّ عافى القِدْر من يستعيرها[4]
تَرَىْ أن قِدْرى لا تزال كأَنها ... لذى الفَرْوَة المَقْرور أُمٌّ يزورها[5]
مبرَّزةٌ لا يُجْعَلُ السِّترُ دونهـا ... إذا أُخْمد النيرانُ لاح بَشيرها[6]
إذا الشَّوْلُ راحتْ ثم لم تَفْدِ لحمهَا ... بأَلْبانها ذاق السِّنانَ عَقِيرُها[7]

واشتهر عندهم بالكرم الفياض كثيرون[8] ، مثل حاتم الطائى الذى ضُربت الأمثال بكرمه ، وهو يصوره فى كثير من شعره كقوله[9] :

إذا ما بخيلُ الناسِ هَرَّتْ كلابُهُ ... وشقَّ على الضيف الغريب عَقورُها

---

(١) المفضليات رقم ٣٦ والحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ٥/١٣٦ .
(٢) مستنبح : من ينبح حتى ترد عليه الكلاب ، فيعرف أن حيا قريباً منه ، القواء : الفلاة . . .
(٣) يهر : ينبح نبحاً خفيفاً ، العقور : العاض .
(٤) عافى القدر : مستعيرها .
(٥) ذو الفروة : المسائل ، المقرور : الذى اشتد به البرد .
(٦) بشيرها هنا : ضوءها .
(٧) الشول : الإبل العظيمة التى لا تحلب ، راحت : رجعت ، يقول إذا رجعت الإبل من مراعيها عقرها لأهل الحى والضيفان .
(٨) انظر فى أجواد الجاهلية كتاب المحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد) ص ١٣٧ .
(٩) الحيوان ١/٣٨٣ .

فإنى جبانُ الكلب بيتى موطَّأٌ جوادٌ إذا ما النفسُ شَحَّ ضميرها

وكانوا لا يقدرون شيئاً كما يقدرون الوفاء ، فإذا وعد أحدهم وعداً أوفى به وأوفت معه قبيلته بما وعد ، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهداً أن ينصروه . وجعلهم ذلك يعظمون الأحلاف فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب. وبلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة أن كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء فى مجامعهم وأسواقهم ، حتى يلحقوا به عار الأبد . يقول الحادرة لصاحبته سمية[1] :

أَسُمَيَّ ـ ويحك ـ هل سمعتِ بغَدْرَةٍ رُفع اللواءُ لنا بها فى مَجْمَعِ

وليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها ، فهم يتمدحون بإغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة ، كما يتمدحون بالأنفة وإباء الضَّيم ، وكيف يقبلون الضيم ، وهم أهل حرب وجلاد ، يقول المتلمِّس[2] :

إنَّ الهوانَ حمارُ الأَهل يعـــرفه والحرُّ ينكره والرَّسْلَةُ الأُجُدُ[3]

ولا يُقيم على خَسْفٍ يُرادُ به إلا الأَذلاَّن: عَيْرُ الأَهل والوَتِدُ[4]

هذا على الخَسْف معقولٌ برُمَّتِهِ وذا يُشَجُّ فلا يبكى له أَحَدُ

فهم لا ينكرون شيئاً مثل إنكارهم للهوان والضيم ، فهما السوأة الكبرى والمثلبة العظمى إذ يعنيان الذل وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها . وكل شىء إلا الهوان ، وكان أقل شعور به يثيرهم ، على نحو ما مر بنا من ثورة عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند حين علم بإهانة أمه فى بلاطه ، وكان نازلا معها عنده ، فاستل سيفه وقتله ، وتغنى شعراء تغلب طويلا بهذا الحادث مفاخرين بعزتهم . وكان للشجاعة والفروسية عندهم منزلة ليس فوقها منزلة ، بحكم حروبهم الدائرة التى لا تنى ولا تفتر .

وكان سادتهم يمثلون هذه الخصال جميعاً فى أقوى صورها ، مضيفين إليها

---

(١) المفضليات ص ٤٥ .
(٢) حماسة البحترى ص ٢٠ .
(٣) الرسلة : الناقة الذلول ، الأجد : الموثقة الخلق.
(٤) العير : الحمار .

حنكة وحكمة بالغة، وقد اشتهر من بينهم حُكّام تجاوزت ألمعيتهم حدود قبائلهم[١]، مثل عامر بن الظَّرب وأكثم بن صيفى ، وكانت تفزع إليهم القبائل فى خلافاتها الكبيرة التى يصعب حلها فى دائرة قبائلهم وشيوخهم ، وقد يفزعون فيها إلى الكهنة والعرّافين .

على أن هناك آفات كانت تشيع فى هذا المجتمع الجاهلى ، لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والقمار ، ونحن نجد الخمر تجرى على كل لسان ، وقد اشتهر بالحديث عنها وعن كئوسها ودنانها وحوانيتها ومجالسها أعشى قيس وعدى بن زيد العبادى الحيرىّ، وعرض لها كثيرون فى أشعارهم مفاخرين بأنهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم . وأكثر من كان يتجر بها اليهود والنصارى ، وكانوا يجلبونها لهم من بُصْرى وبلاد الشام ومن الحيرة وبلاد العراق ، ويقال إنهم كانوا يضربون خيامهم فى بعض الأحياء أو فى بعض القرى ويضعون فوقها راية تعلن عنهم ، فيأتيهم الشباب ليشربوا وليسمعوا بعض القيان ممن يصاحبنهم . وكان من الشباب من يدمن عليها حتى تنفر منه قبيلته، وقد تخلعه لما يتدنّى فيه من رذائل ، على نحو ما يروى عن البَرّاض ابن قيس الكنانى أحد أدلاّء القوافل فى الجاهلية، إذ كان سكّيراً فاسقاً ، فخلعه قومه وتبرأوا منه[٢] . ويقول طرفة فى معلقته :

وما زال تَشْرابى الخمورَ ولذتى ... وبَيْعى وإنفاقى طريفى ومُتْلَدِى[٣]

إلى أن تحامتْنى العشيرةُ كلها ... وأُفْرِدْت إفرادَ البعير المعبَّد[٤]

ولولا ثلاثٌ هن من عيشة الفتى ... وجَدِّك لم أحفل متى قام عُوَّدى[٥]

فمنهن سَبْقُ العاذلات بشَرْبةٍ ... كُمَيْت متى ما تُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ[٦]

---

(١) انظر فى حكام العرب كتاب المحبر ص ١٣٢ .

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٩/٧٥ .

(٣) الطريف : المال الحديث ، والمتلد : المال القديم .

(٤) تحامتنى : تجنبتنى ، المعبد : الأجرب .

(٥) عود: جمع عائد أو عائدة، ويقصد من يعودونه عند الوفاة ويبكونه . والجد : الحظ والبخت .

(٦) الكميت : الخمر ، يقول إنه يباكر شرب الخمر قبل انتباه العواذل .

وكرّى إذا نادى المضافُ محنَّبًا كسِيدِ الغَضَا نبَّهْتَهُ المتورِّدِ(١)

وتقصيرُ يوم الدَّجْنِ والدَّجْنُ معجبٌ ببَهْكنَةٍ تحت الخِباء المعمَّدِ(٢)

وواضح أنه يجعل من خلال الفتى هذه الخصال الثلاث ، وهى الخمر والفروسية أو الشجاعة فى الحرب والتمتع بالنساء .على أن هذه الفتوة التى يصورها طرفة كانت تتسامى عند كثير من فرسانهم مثل عنترة ، بل حتى من صعاليكهم مثل عروة ابن الورد وسنعرض لذلك فى موضع آخر .

ومهما يكن فقد كانت الخمر وما يتبعها من استباحة النساء شائعة فى هذا العصر ، وكان يشيع معها القمار أو الميسر ، وكانت عادتهم فيه أن يذبحوا ناقة أو بعيراً ، ويقسموا ما يذبحونه عشرة أجزاء ، ثم يأتوا بأحد عشر قدحاً ، يجرون عليها قمارهم ، وكانوا يجعلون لسبعة منها نصيباً إن فازت ، وعلى أصحابها غُرْمٌ إن خابت ، وأكبرها نصيباً يسمى المُعَلَّى . أما الأربعة الباقية فلاحظّ لها حتى إن فازت .

وأكبر الدلالة على شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التى هاجمتها فى القرآن الكريم وما وضعه الإسلام لها من عقاب صارم حتى يكفّ العرب عنها ، وقد شدد فى عقوبة استباحة النساء ، وأكثر من النهى عن الخمر والميسر من مثل قوله تعالى : (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما) وقوله جلّ وعز : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وقد وصف الخمر بأنها (رجس من عمل الشيطان) . ونجد فى الحديث النبوى نهياً كثيراً عنها وأن الله لعنها ولعن عاصرها ومعتصرها وشاربها (٣) وقد جعل لها

---

(١) المضاف : الخائف المذعور ، والمحنب : الفرس الذى فى قوائمه أو ضلوعه انحناء قليل ، والسيد : الذئب ، والغضا : شجر ، نبهته : هيجته ، المتورد : الجرىء . يقول : إذا استغاث به خائف عطف فرسا يسرع فى عدوه إسراع ذئب الغضا الجرىء حين تهيجه .

(٢) الدجن : الغيم ، البهكنة : المرأة الجميلة ، المعمد : المرفوع بالعماد .

(٣) انظر كتاب الأشربة فى سنن أبى داود وابن ماجة والنسائى والبخارى ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية فى مادة خمر .

obeikandi.com

الرسول صلى الله عليه وسلم حدًّا : أربعين جلدة ، ولما وجد عمر أن بعض العرب لا يزال يتورط فى شربها رفع حدها إلى ثمانين .

وهذا كله يشهد شهادة قاطعة بانتشار هذه الآفات بين عرب الجاهلية ، وفى أخبار الأعشى أنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم رغب فى الوفود عليه بالمدينة ومديحه ، وعلمت قريش فتعرضت له تمنعه ، وكان مما قاله له أبو سفيان إنه « ينهاك عن خِلال كلها بك رافق ولك موافق » فلما سأله عنها أجابه : الزنا والقمار والخمر ، فعدل الأعشى عن وجهته[1] . وعلى نحو ما هاجم الإسلام هذه الآفات هاجم قانونهم الدموى المقدس : قانون الأخذ بثأر ، فهدمه هدماً وأبطله إبطالا إذ جعل حقه للدولة لا للأفراد، وأقام لهم نظاماً سماويًّا رفيعاً لمجتمعهم ليس هنا محل بحثه .

وحتى الآن لم نتحدث عن المرأة ومكانتها فى هذا المجتمع ، وقد كان هناك نوعان من النساء : إماء وحُرّات ، وكانت الإماء كثيرات ، وكان منهن عاهرات يتخذن الأخْدان ، وقينات يضربن على المزهر وغيره فى حوانيت الخمارين ، كما كان منهن جوار يخدمن الشريفات ، وقد يرعين الإبل والأغنام . وكن فى منزلة دانية ، وكان العرب إذا استولدوهن لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن ، إلا إذا أظهروا بطولة تشرفهم على نحو ما هو معروف عن عنترة بن شداد ، فإن أباه لم يلحقه بنسبه إلا بعد أن أثبت شجاعة فائقة ردَّت إليه اعتباره .

وكانت الحرة تقوم بطهى الطعام ونسج الثياب وإصلاح الخباء، إلا إذ كانت من الشريفات المخدومات ، فإنه كان يقوم لها على هذه الأعمال بعض الجوارى . وتدل دلائل كثيرة على أن بنات الأشراف والسادة كان لهن منزلة سامية ، فكن يخترن أزواجهن ، ويتركنهم إذا لم يحسنوا معاملتهن[2] . وبلغ من منزلة بعض شريفاتهن أنهن كن يحمين من يستجير بهن ويردون إليه حريته إذا استشفع بهن ، على نحو ما ردت فكيهة إلى السُّلَيْك بن السلكة حريته حين وقع أسيراً فى يد عشيرتها من بنى عوار[3] . وكانوا يعدونها جزء لا يتجزأ من عرضهم ، ولم يكن شىء

---

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢٦/٩. والأمالى ١٠٦/٢ والمحبر ص ٣٩٨ .

(٢) انظر الأغانى ١٣/١٠ وما بعدها

(٣) الأغانى (طبعة الساسى) ٣٧/١٨ .

يثيرهم كَسَبْيِ نسائهم وهم بعيد عن الحى ، فكانوا يركبون وراءهم كل وَعْر حتى يلحقوا بهن وينقذوهن ويغسلوا عار سبيهن عنهم ، وهو عار عندهم ليس فوقه عار .

وكانوا يصحبونهن معهم فى الحرب ، وكن يشددن من عزائمهم بما ينشدن من أناشيد حماسية ، حتى إذا قتل فارس ندبنه ندباً حارًّا حاضّات على الأخذ بثأره والانتقام من قتلته . وتلمع فى هذا الجانب أسماء كثيرات على رأسهن الخنساء ومراثيها فى أخويها صخر ومعاوية مشهورة . وكن يَسْتَشطن غضباً إذا رضيت العشيرة بأخذ الدية ، حقناً للدماء ، على نحو ما تصور ذلك كبشة أخت عمرو بن معد يكرب ، وقد قُتل أخ لها[1] :

فإن أنتمُ لم تثأروا واتَّدَيْتُمُ ... فمشُّوا بآذان النَّعَامِ المصلَّمِ[2]

فهى ترى أن عشيرتها إن قبلت الدية فى أخيها أعطتْ عن يد وهى صاغرة صَغار الأسرى الذين تُجْدَعُ آذانهم ، بل صَغار النعام المصلم المقطوعة آذانه . وتقول أم عمرو بنت وَقْدان فى أخ لها قُتل وقد فكرت عشيرتها فى قبول ديته[3] :

إن أنتمُ لم تطلبوا بأخيكمُ ... فذَروا السِّلاح ووحِّشوا بالأَبْرَقِ

وخذوا المكاحل والمَجاسد والبسوا ... نُقَبَ النساءِ فبئس رهط المُرْهَقِ[4]

فهم إن لم يثأروا لأخيها حقَّ عليهم أن يلقوا السلاح ويمضوا على وجوههم إلى مكان بعيد بالأبرق ، فيتزيوا بزى النساء ، ويتعطروا ويتزينوا بزينتهن . وكانوا يفرون من الحرب حين لا يكون من الفرار بد ، إلا أن تكون معهم النساء ويرونهن فارات وقد حسرن عن وجوههن ، حينئذ يثبتون فى المعركة ويناضلون حتى الذِّماء الأخير[5] :

وكان جمالهن يثيرهم ، وينطق ألسنتهم بوصفه ووصف ما كن يتزين به من

---

(١) المرزوقى ١/٢١٨ وقارن الأصمعيات ص ١٥٧ .

(٢) اتديتم : أخذتم الدية ، وآذان النعام مصلمة خلقة .

(٣) المرزوقى ٣/١٥٤٦ .

(٤) المجاسد : جمع مجسد وهو الثوب المشبع صبغة ، والنقب : جمع نقبة ، وهى إزار للمرأة.

(٥) المرزوقى ١/١٧٧ .

طيب وحلى وثياب على نحو ما تصور ذلك معلقة امرئ القيس إذ يقول :

وتُضْحى فَتيتُ المسك فوق فراشها ... نَؤُومُ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تفضّلِ

ويقول المنخّل اليشكرى في فتاته[(١)] :

الكاعب الحَسْناء تَـــرْ ... فُلُ في الدِّمَقْسِ وفي الحَرير

ولم يقفوا عند جمالها الجسدى : فقد فطنوا إلى جمالها المعنوى وما تتحلى به من شيم وخصال كريمة ، على نحو ما يقول الشَّنْفَرى في زوجته أميمة[(٢)] :

لقد أعجبتْنى لاسَقوطا قِناعُها ... إذا ما مشتْ ولا بذات تلفّتِ

تبيت بُعَيْد النوم تُهدى غَبوقها ... لجاراتها إذا الهديَّةُ قَلَّت[(٣)]

تحلّ بمنجاة من اللوم بيتَها ... إذا ما بيوتٌ بالمذمة حُلَّتِ

كأن لها في الأرض نِسْيًا تَقُصُّه ... على أَمِّها وإن تكلمك تَبْلَتِ[(٤)]

أميمةُ لا يُخْزى نَثاها حَليلَها ... إذا ذُكرالنسوان عَفَّتْ وجَلَّتِ[(٥)]

إذا هو أمسى آبَ قُرَّةَ عينهِ ... مآب السعيد لم يَسَلْ أين ظَلَّتِ[(٦)]

فصاحبته وقور خجول ، لا يسقط قناعها في أثناء سيرها ولا تلتفت حولها . وهى كريمة مؤثرة تؤثر جاراتها في الجدب بغبوق اللبن ، وقد حصّنت بيتها عن كل لوم أو ذم يلحقها : وهى شديدة الحياء . ومن أجل ذلك لا ترفع رأسها عن الأرض في مسيرها ، حتى ليظن من يبصرها أنها تبحث عن شيء ضاع منها . وإذا اعترضها شخص وكلمها أوجزت ومضت لقصدها وغرضها . وإن الحديث العطر عنها في العشيرة ليملأ زوجها زهواً وخيلاء ، إنها مثال العفة والجلال . وإنه ليرفعها عن كل شك وتهمة ، فإذا أمسى وعاد إليها من المرعى أو بعد رحلته

---

(١) الأصمعيات ص ٥٥ .

(٢) المفضليات رقم ٢٠ .

(٣) الغبوق : اللبن الذى يشرب في العشى .

(٤) النسى : الشيء المنسى أو المفقود ، تقصه : تتعقب أثره ، أمها بفتح الهمزة : قصدها . تبلت : أوجزت .

(٥) النثا : الحديث عن الشخص ، الحليل : الزوج .

(٦) آب : رجع .

الطويلة عاد قرير العين بها سعيداً ، فلا يسألها أين كانت لأنها موضع ثقته .

وتدور فى كتب الأدب قصص وأشعار كثيرة تصور هُيام بعضهم بهن ، وكانوا دائماً يفتتحون قصائدهم بذكرهن وما كان لهم من ذكريات معهن فى بعض المعاهد والمنازل ، ويمزجون ذلك بالدموع ، على نحو ما يقول امرؤ القيس فى مطلع معلقته :

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخول فحَوْمَلِ

فالمرأة لم تكن فى الجاهلية مهملة ، بل كان لها قدرها عندهم ، كما كان لها كثير من الحرية ، فكانت تمتلك المال وتتصرف فيه كما تشاء ، وقصة اتجار الرسول صلى الله عليه وسلم فى أموال السيدة خديجة أم المؤمنين مشهورة . وقد دعم الإسلام هذه الحرية ، فحرم أن تُعْضَلَ المرأة وتمنع من الزواج بعد وفاة زوجها كما حرم زواج المَقْت ، وهو أن يجمع الرجل بين أختين ، وحرم الشِّغار ، وهو أن يتزوج شخصٌ أخت صديق له على أن يزوجه أخته ، وأيضاً فإنه حرم أن يتزوج الابن امرأة أبيه بعد موته أو أن يتزوج عدة رجال امرأة واحدة ، إلى غير ذلك مما كانوا يبيحونه . وتلك كانت عادات عندهم ، وهى تلازم الأمم فى عصور بداوتها ، ولكن ينبغى أن لا نفهم منها أن المرأة كانت مهدرة الحقوق فى الجاهلية ، أما ما سجله عليهم القرآن الكريم من وأدهم للبنات فى قوله تعالى : (وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيمسكه على هُون أم يَدُسُّه فى التراب ألا ساء ما يحكمون) فأكبر الظن أن من كانوا يصنعون ذلك منهم أجلاف قساة القلوب كانوا يخشون عليهن من الفقر أو السبى ، إذ كان سباؤهن كثيراً فى الجاهلية ، وكانوا يعدون ذلك سُبَّة ما بعدها سبة .

٢

المعيشة

لم يكن العرب يعيشون فى الجاهلية معيشة واحدة ، فقد عُرفت الزراعة فى الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثل يثرب وخيبر وفى الطائف ووادى القُرى . وعاش أهل مكة على التجارة ، إذ كانوا يحملون عُروضها وسلعها بين حوضى المحيط الهندى والبحر المتوسط . وكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالا وجنوباً فى طرق معلومة كما كانت تجوبها شرقاً فى طريقين معروفين : طريق إلى الخليج الفارسى من شرقى مكة وكان يمر بمدينة الرياض الحالية ، وطريق ثان كانوا يذهبون فيه شمالا إلى خَيْبر ، ثم يخترقون الصحراء فى وادى الرُّمَّة ، ويظن أنه كان مجرى نهر فى عصور ما قبل التاريخ ، ومنه يهبطون إلى الحيرة . وكان يصحبهم فى هذه القوافل أدلاّء يحمونهم الضلال فى مجاهل الصحراء [١] ، ومن أشهرهم فُرات ابن حيان ، كما كان يصحبهم خفراء يحمون قوافلهم من ذؤبان البادية وقراصنتها أو صعاليكها الذين تعودوا النهب والسلب [٢] ، وقد يبلغون ثلاثمائة عدًّا ، ومن أهم القبائل التى كانوا يخشون ذؤبانها قبيلتا هُذَيْل وفَهْم . وكانوا ينقلون من الجنوب : من اليمن وحوض المحيط الهندى وإفريقية الشرقية اللُّبان والطيب والبخور والجلود وثياب عدن النفيسة وتوابل الهند ورقيق إفريقية والصمغ والعاج ، كما كانوا ينقلون من الطائف الزبيب ومن مناجم بنى سليم الذهب . كل ذلك كانوا ينقلونه إلى حوض البحر المتوسط ويعودون محملين بالأسلحة والقمح والزيوت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية [٣] .

فمكة فى الجاهلية كانت مدينة تجارية عظيمة ، وكان بها الكعبة أكبر معابد العرب حينئذ ، فكانوا يحجون إلى أصنامهم وأوثانهم فيها ، وتقيم لهم قريش الأعياد والأسواق كسوق عكاظ [٤] ، وكانت أكبر أسواقهم ، وكانوا يقيمونها فى نجد

---

(١) المغازى للواقدى (طبع كلكتا) ص٣٦ ، ١٩٦ ، والمحبر ص ١٨٩ .

(٢) المحبر ص ٢٦٤ .

(٣) انظر مكة فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) راجع فى تحقيق عكاظ رسالة بعنوان موقع عكاظ لعبد الوهاب عزام (طبع دار المعارف).

بالقرب من عرفات من منتصف ذى القعدة إلى نهايته ، ولم تكن سوقَ تجارة فحسب ، بل كانت سوقاً للخطابة والشعر أيضاً ، وقد استمع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قُسِّ بن ساعدة وهو يخطب فى الناس . وقالوا إنه كانت تقام للنابغة فيها قُبَّة ويفد عليه الشعراء يعرضون شعرهم ، فمن أشاد به طار اسمه . وكثيراً ما كانوا يفتدون الأسرى فيها وتدفع الديات ، وأيضاً كثيراً ما كانت تقوم المفاخرات والمنافرات . وعُرف غير واحد بأن الناس كانوا يحتكمون إليه فيها ، ويذكر فى هذا الصدد أناس من تميم مثل الأقرع بن حابس . ومعنى ذلك كله أن عكاظاً كانت أشبه بمؤتمر كبير للعرب ، فيه يجتمعون وينظرون فى خصوماتهم ، ومنازعاتهم ، وكل ما يتصل بهم من شئون . ومن أسواق قريش أيضاً ذو المجاز بالقرب من عكاظ ، وكانت تظل هذه السوق منعقدة إلى نهاية الحج .

وبجانب هاتين السوقين الكبيرتين كان للعرب أسواق أخرى كثيرة يميرون فيها كما يريدون ويشترون ويبيعون ، ومن أهمها سوق دَوْمة الجندل فى شمالى نجد وسوق خيبر وسوق الحيرة وسوق الحِجْر باليمامة وسوق صُحار ودَبا بعمان وسوق المشقّر بهَجر وسوق الشِّحر وسوق حضرموت وسوق صنعاء وعدن ونجران . وكان لكل سوق من هذه الأسواق وقت معلوم تعقد فيه[1] .

ولم يكن عرب نجد يفيدون من هذه الأسواق فقط البيعَ والشراء فإن قوافل عُروضها القرشية وغيرها كانت تجعل الكثيرين منهم عُمّالاً نظير حمايتها ، وكانت تتخذ منهم الخفراء والأدلاء ، فتنفحهم بأموالها . على أنه ينبغى أن لا نظن أن أهل مكة جميعاً كانوا أثرياء ، فقد كان بجانب الأثرياء فقراء وصعاليك كثيرون ، وكان الفرق شاسعاً بين ثراء السيد الشريف وفقر المعوز البائس ، كما كان بها رقيق كثير .

ووراء المجتمع المكى كان يعيش العرب فى تهامة ونجد وصحراء النفود وبوادى الشام والدهناء والبحرين معيشة بدوية تعتمد على رعى الأغنام والأنعام . وكانوا لا يفضلون شيئاً على حياتهم الرعوية البدوية ، لا يفضلون الزراعة ولا الصناعة ، بل يحتقرونهما ويزدرونهما ، فلا حياة مثل حياتهم حياة البساطة والحرية التى

(١) انظر فى أسواق الجاهلية كتاب المحبر ص ٢٦٣ ، واليعقوبى ١/٣١٣ وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٤/٢٢٣ .

لا تُحَدّ . ووقفت الصحراء تحميهم وتحرس تقاليدهم ولغتهم وتقيم أسواراً من دونهم ودون هذه الحياة الصحراوية ، وهى حياة كان غذاؤهم فيها بسيطاً ، فقليل من الشعير يكفيهم ، وإذا أضيف التمر واللبن فذلك غذاء رافه ، وكان لباسهم بسيطاً كغذائهم ، وهو ليس أكثر من ثوب طويل يضمه فى وسطه منطقة وقد تلفه عباءة ، وغطاء للرأس يمسكه عقال .

ولكن لا تظن أن هذه الحياة البسيطة كانت سهلة ، فقد كانت الصحراء مليئة بالمخاوف والمخاطر ، إذ فيها غير قليل من الوحوش والسباع والحشرات والحيات ، وفيها القفار الجرداء الزاخرة بالخنادق والمهاوى ورياح السموم ، وفيها حنادس الليل المظلم المخيف التى كانت تلقى فى روعهم بالخيالات والأوهام وما تمثل لهم من السَّعالى والجن والغيلان . وفى تضاعيف ذلك كان العرب يتربص بعضهم ببعض ، إذ كانت حياتهم كما قدمنا حياة حربية دامية ، وكاد أن لا يكون هناك حى أو عشيرة بل أسرة إلا وهى واترة موتورة .

وقد تحولت هذه الحياة الحربية من بعض وجوهها إلى مصدر من مصادر رزقهم ، إذ كانوا يتخذون الغزو وسيلة من وسائل عيشهم ، وهو عيش مشوب بالضنك والشظف وهذا الصراع العنيف الذى كانوا يخوضونه ضد مخاطر الصحراء ومن يترصدهم من الأعداء ، وصوَّر ذلك تصويراً طريفاً تأبط شرًّا فى كلمة له ، فقال [١] :

يظلُّ بِمَوْمَاةٍ ويُمْسى بغيرها ... جَحِيشًا ويَعْرَوْرِى ظهورَ المهالكِ [٢]

ويَسْبِق وَفْدَ الريح من حيث يَنْتَحِى ... بِمُنْخَرِقٍ من شدِّهِ المتداركِ [٣]

إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل ... له كالئٌ من قلبِ شيحانَ فاتكِ [٤]

ويجعل عينيه رَبِيئةَ قلبه ... إلى سَلَّةٍ من حَدِّ أخضرَ باتكِ [٥]

---

(١) المرزوقى ١/٩٥ وأمالى القالى ٢/١٣٨ وزهر الآداب ٢/١٨ .

(٢) يظل هنا : يغدو ، الموماة : الفلاة ، جحيشاً : منفرداً ، يعرورى : يركب .

(٣) وفد الريح : أولها ، ينتحى : يقصد ، منخرق : سريع ، يقصد العدو السريع ، الشد : العدو ، المتدارك : المتلاحق .

(٤) خاط عينيه كرى النوم : نام ، الكالئ : الرقيب ، الشيحان : الجاد فى الأمر .

(٥) الربيئة : الرقيب والديدبان ، والسلة : الواحدة من سل السيف ، والأخضر : السيف ، والباتك : القاطع .

obeikandl.com

إذا هزَّه فى عَظْمِ قِرْنٍ تَهلَّلَتْ نَواجِذُ أفواه المنايا الضَّواحِكِ (١)

يرى الوحشةَ الأُنْسَ الأَنيسَ ويَهْتَدِى بحيث اهتدتْ أمُّ النجوم الشَّوابكُ (٢)

وتلك كانت حياة أكثرهم ، فهم يقطعون مفازة فى النهار ، فإذا جنَّهم الليل وجدتهم فى مفازة أخرى وقد ركبوا ظهور المهالك والمعاطب . لا يستصحبون رفيقاً غالباً سوى أرجلهم التى تعودت العدو السريع . وهم دائماً مفزَّعون حتى فى النوم ، فإذا ناموا لم ينم قلبهم بل ظل يكلؤهم ويرعاهم خيفة عدو راصد من وحش أو إنسان ، بل إن النوم لا يكاد يلم بعيونهم إلا غراراً ، فهى معلقة بسيوفهم التى لا تلبث أن تستقر فى صدور من يهجمون عليهم ، فيضحك الموت ويكشر عن أنيابه الغلاظ . وعلى هذه الشاكلة هم دائماً مستوحشون ، بل إنهم ليؤثرون الوحشة ويستحبونها إذ يرون فيها الأنس ، فأنسهم فى التفرد بالفلوات والقفار التى تمرسوا بها وعرفوا مسالكها ودروبها معرفة تجعلهم لا يضلون قصدهم ، كما لا تضل الشمس قصدها ، بل يهتدون دائماً إليه .

وهذه الحياة القاسية المخوفة هى التى دفعتهم إلى الإشادة باحتمال الشدائد والجرأة والشجاعة ، فإن القبيلة إن لم يكن لها حماة يذودون عنها تخطفتها القبائل من حولها وفنيت فيها . وكان أهم حيوان أعانهم على احتمال هذه الحياة المجهدة البعير الذى يتحمل — مثلهم — مشاق الصحراء ولا يرهقه عطش ولا جوع ولا ما يحمله من أثقال . فهو رفيقهم المفضل الذى يوافقهم ، ولذلك طالما أشادوا به فى شعرهم . وكثيراً ما يصفون معه الحيوانات التى تصادفهم من مثل أُتن الوحش وحمارها وبقر الوحش وثورها والنعام والظباء . وكان فرسانهم ينفقون أيامهم على صهوات الجياد يرتادون بها مجاهل الصحراء ويلقون عليها الأعداء ، وقد يتخذونها لصيد الوحش على نحو ما يصور لنا ذلك امرؤ القيس فى معلقته وزهير فى لا ميته (٣) .

وكان صيد الحيوان الشغل الشاغل لكثيرين منهم . فكانوا يدربون الكلاب عليه ويضرُّونها تضرية ، حتى تصبح من الجوارح الفاتكة ، وفى شعرهم قطع كثيرة تصف المعارك التى كانت تنشب بينها وبين الأتن وحمارها أو البقر وثورها .

---

(١) القرن : الكفء والنظير ، تهللت : تلألأت وأشرقت .

(٢) أم النجوم : الشمس .

(٣) انظر ديوان زهير ص١٢٤وما بعدها .

وفى معلقة لبيد وصف بارع لأتن وحمارها ، ثم لبقرة وحشية تعقبها الرماة بنبلهم ، ولما يئسوا أن يصيبوا منها مقتلا أرسلوا فى إثرها جوارح الكلاب فنشبت معركة حامية قتلت فيها البقرة كلبتين هما كَسابِ وسُخام ، يقول :

حتى إذا يئسَ الرماةُ وأرسلوا ... غُضْفًا دواجِنَ قافلا أعْصامها[1]

فلحِقْنَ واعتكرتْ لها مَدْرِيَّةٌ ... كالسَّمْهريَّة حَدُّها وتمامها[2]

لتذودهنَّ وأيقنتْ إن لم تذد ... أن قد أَحَمَّ مع الحتوف حِمامُها[3]

فتقصَّدتْ منها كَسابِ فضُرِّجَتْ ... بدمٍ وغودر فى المكَرِّ سُخامُها[4]

ولأوس بن حجر قصيدة فائية[5] وصَف فيها حمار الوحش وصفاً بديعاً ، ثم وصف الصائد وصفاً مسهباً ، أرانا فيه ناموسه وكيف كان يختبئ للوحش على عين ، حتى إذا ورد الحمار ختله بسهمه ، غير أنه أخطأه .

ويظهر أن صيد الوحش لم يكن هم شجعانهم وفرسانهم ، إنما كان هم فقرائهم ومعوزيهم ، ولذلك كان يأتى فى المرتبة الثانية من غزوهم ونهبهم اللذين يدلان على بطولتهم واستبسالهم ، ولعل ذلك ما جعل عمرو بن معد يكرب يهجو قوماً بأنهم يعيشون على الصيد ، إذ يقول[6] :

أبنى زيادٍ أنتمُ فى قومكم ... ذَنَبٌ ونحن فُروعُ أصلٍ طَيِّبِ

نَصِلُ الخميسَ إلى الخميس وأنتمُ ... بالقَهْر بين مُرَبِّقٍ ومُكَلِّبِ[7]

حِيدٌ عن المعروف سعيُ أبيهمِ ... طلبُ الوعول بوَفْضَةٍ وبأَكْلُبِ[8]

وكما كانوا يصيدون الوعول أو الماعز الجبلى كانوا يصيدون الوحش ، ويتردد وصفهم له فى أشعارهم تردداً واسعاً ، وهو تردد أتاح للجاحظ فى حيوانه سيولا

---

(١) الغضف : الكلاب المسترخية الآذان ، الدواجن : الضاريات وقيل المعلمات ، وقافلا : يابساً ، والأعصام : قلائد من أدم تجعل فى أعناق الكلاب .

(٢) اعتكرت : رجعت وعطفت ، والمدرية القرون الحادة ، والسمهرية : الرماح .

(٣) الحمام : الموت ، وأحم : حان .

(٤) تقصدت : قتلت من قولهم رماه فأقصده .

(٥) انظر ديوانه بتحقيق محمد يوسف نجم (طبع دار صادر ببيروت) رقم ٣٠ .

(٦) حيوان ٢/٣٠٩ .

(٧) الخميس : الجيش . المربق : الصائد بالربقة وهى العروة فى الحبل ، والمكلب : الصائد بالكلاب .

(٨) الوفضة : جعبة للسهام من أدم .

من هذه الأشعار .

وتلك كانت معيشتهم بين صيد للوحش وصيد للإنسان ورعى للأنعام والأغنام ، فتلك موارد رزقهم ، وليس معنى ذلك أنهم كانوا متساوين فى هذا الرزق ، فقد كان فى كل قبيلة السادة الذين يملكون مئات الإبل والفقراء الذين لا يملكون شيئاً . وتحول كثير من هؤلاء الفقراء إلى قطاع للطرق يسلبون وينهبون ويقتلون على نحو ما هو معروف عن تأبط شرًّا والشنفرى وأضرابهما . وما كان يقوم به هؤلاء الذؤبان أو الصعاليك كانت تقوم به القبائل برمتها أحياناً حين تكفّ السماء عنهم غيثها وتجدب ديارهم وتُمْحل ، فلا يكون أمامهم سوى الغزو وشن الغارات ، ولعل ذلك هو الذى دفعهم دفعاً إلى الإشادة بالكرم والكرماء ، وقد أشادوا طويلا بهذه الفضيلة كما أسلفنا ، وهى إشادة طبيعية فى هذه الصحراء المقفرة المهلكة ، التى يحفّ بها المحل والجدب من كل جانب .

٣

المعارف

ليس بين أيدينا ما يدل على أن العرب الجنوبيين أورثوا عرب الشمال حضارة واضحة ، ويظهر أنهم لم يخطوا فى طريق الحضارة خطى واسعة ، فقد كان عندهم علم بالزراعة وهندسة إرواء الأرض وإقامة المدن ، ولم يكن عندهم ثقافة ذات معالم بينة ، وحتى من وجهة التنظيم السياسى كان يعمهم النظام الإقطاعى ، ولذلك حينما ضعفت دولتهم الأخيرة دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات أو الدولة الحميرية تحولوا سريعاً إلى قبائل بدوية .

ومما لا ريب فيه أن العرب الشماليين كانوا على صلة بالحضارات المجاورة ، فقد كان تجّار مكة يدخلون فى مصر والشام وبلاد فارس ، وكان الحيريون يتصلون مباشرة بالفرس ، كما كان الغساسنة يتصلون بالروم ، وقد تنصروا ، وشاعت النصرانية فى قبائل الشام والعراق ، ونزل بينهم كثير من اليهود فى الحجاز واليمن . وكل ذلك معناه اتصال العرب الشماليين بالأمم المجاورة وحضاراتها ، ولكن يبدو أن ذلك كان يجرى فى حدود ضيقة وأنه وقف فى جمهوره عند تأثرات بسيطة كأن يأخذوا عن الفرس والروم بعض فنون الحرب أو يعرفوا بعض أخبارهم وأساطيرهم ، فى السيرة

النبوية أن قريشاً حين جمعت العرب — بعد موقعة أحد — لغزو المدينة أشار سَلمان الفارسى على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفر الخندق ، حتى لا يستطيعوا اقتحام المدينة عليه ، وكأنه كان أعلم مَنْ حوله بأساليب الحرب[١]. وفى السيرة أيضاً أن النضر بن الحارث كان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُسْتم وإسْفِنْديار. فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهو لا يزال فى مكة) مجلساً فذكر فيه الله وحذر قومه ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم من نقمة الله خَلَفه فى مجلسه إذا قام، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه . ثم يحدثهم عن ملوك فارس وأبطالهم الأسطوريين[٢] .

فالعرب الشماليون لم يكونوا منقطعين عن التأثيرات الحضارية الأجنبية ، غير أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصور ما وصل إليهم من هذه التأثيرات ، فقد كانوا لا يزالون فى طور السذاجة البدوية ، وكل ما يمكن أن يقال إنهم كانوا فى نهاية هذا الطور . وقد وقف من قديم قوم يقارنون بينهم وبين الشعوب المتحضرة من حولهم كالفرس والروم ، وكان على رأسهم الشعوبية ، وهى مقارنات تقوم على التحكم ، لأنها تقارن بين بدو ومتحضرين ، وقد مر الفرس والروم بطور بداوة كما مر العرب ، ولم يكن لهم فيه حضارة ولا نظر علمى دقيق . ومثل هذه المقارنات ما بعثه الغربيون منذ القرن الماضى من الموازنة بين الساميين جميعاً عرباً وغير عرب وبين الآريين ، على نحو ما هو معروف عن رينان[٣] ، فقد ذهبوا يزعمون أن الآريين هم الجنس المفضل الذى أحدث الحضارة ،وكأنهم يريدون أن يبرّروا صنيع ساستهم واستعمارهم للشعوب السامية . . وهى نظرية لا تؤيدها الحقائق العلمية الخالصة ، إذ لا يستطيع أحد أن يثبت نقاء سلالة جنسية بعينها ، لها نسب صريح ، وأيضاً فإن هذه النظرية تتناسى أثر البيئة والظروف التى تلم بالشعوب ، ومن المحقق أن الحضارة الإنسانية ليست من عمل جنس واحد ، فقد تعاونت على تكوينها أجناس متباينة ، ولكل جنس فيها نسبه المتعادلة . ويدخل فى هذه المقارنات المضللة ما نجده عند ابن خلدون

---

(١) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٣/٢٣٥ .
(٢) السيرة النبوية ١/٣٢١ .
(٣) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١/١٦٨ .

من حكمه على العرب بأنهم ليسوا أصحاب صناعات ولا علوم[١] ، لأن ذلك إنما ينطبق عليهم فى الجاهلية ، أما فى الإسلام فقد عرفوا الصناعات ونهضوا فى الميادين العلمية والفلسفية نهضة كانوا فيها أساتذة العالم فى عصوره الوسيطة . ويقول أوليرى : إن العربى مادى ، ضيق الخيال والعواطف[٢] ، وكأنه يتجاهل أدبهم وما يزخر به من أخيلة ومشاعر ، وهو تعميم جنسى لا دليل عليه ، وكأنما قادته إليه نظرية الأجناس البشرية وما يدعو إليه أصحابها من تفوق الجنس الآرى على ما سواه من أجناس .

وندع هذه المقارنات المضللة وما سقط منها من أحكام خاطئة إلى بيان ما كان لدى العرب فى الجاهلية من معارف ، لعل أهمها علمهم بالأنساب والأيام وما ينطوى فى ذلك من المناقب والمثالب ، مما سجله العباسيون فى مجلدات ضخمة . وكأنهم رأوا فى ذلك كله تاريخهم ، فكانوا يروونه ويحفظونه أبناءهم ، واشتهر عندهم كثيرون فى هذا الباب من أبواب الرواية .

ويلى هذا النوع من المعارف معرفتهم بالنجوم ومطالعها وأنوائها وأمطارها ، يقول الجاحظ : « وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء لأن من كان بالصحاصح الأماليس[٣] — حيث لا أمارة ولا هادى مع حاجته إلى بعد الشقة — مضطر إلى التماس ما ينجيه ويُؤْديه[٤] ، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجدب وضنه بالحياة اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، ولأنه فى كل حال يرى السماء وما يجرى فيها من كوكب ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً[٥] ، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً. وسُئلت أعرابية فقيل لها : أتعرفين النجوم ؟ قالت : سبحان الله أما أعرف أشباحاً وقوفاً علىَّ كل ليلة . ووصف أعرابى لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء ونجوم الاهتداء ونجوم ساعات الليل والسعود والنحوس ، فقال قائل لشيخ عِبادى كان حاضراً : أما ترى هذا الأعرابى

---

(١) المقدمة (طبع المطبعة البهية) ص ٢٥٢ وفى مواضع متفرقة .

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة الأولى) ص ٣٩ نقلا عن كتاب أوليرى: Arabia Before Muhammad.

(٣) الصحاصح : الأرض المستوية ، الأماليس : التى ليس بها ماء ولا شجر .

(٤) يؤديه : يعينه .

(٥) فارداً : منفرداً .

يعرف من النجوم ما لا نعرف ؟ قال : من لا يعرف أجذاع[١] بيته[٢]؟ !» . وهى معرفة أداهم إليها فرط الحاجة ، ويقول صاعد بن أحمد المتوفى سنة ٤٣٥ هـ : « كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغايبها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب فى العلوم[٣] ».

وبهذا القياس نفسه كانت معارفهم الطبية ، فقد عرفوها بالتجربة مثل الكى بالنار وفوائد بعض العقارات النباتية . وكان ينتشر بينهم فى تضاعيف ذلك كثير من الخرافات كإيمانهم بأن دم السادة يشفى من الكلب وأن عظام الميت تشفى من الجنون وأن روحاً شريرة تحلّ فى المريض، وكانوا يتداوون منها بالعزائم والرُّقى . فطبهم كان قاصراً ولم يكن مبنيًّا على قواعد عقلية، وحقًّا ما يقول ابن خلدون : « للبادية . . طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثة عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج ، وكان عندُ العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كَلَدة وغيره[٤] » . ومن أهم معارفهم الطبية معارفهم البيطرية ، وخاصة فيما اتصل بالخيل والإبل ، فقد عرفوا شياتها وما يزينها ويعيبها وما يتصل بذلك من علل وأمراض وأدواء كالجرب وما كانوا يداوونه به . وقد تحدثوا طويلا عن حيواناتهم وخصائصها حديثاً بل أحاديث أفاد منها الجاحظ فى حيوانه ، غير أنه يعلق على ذلك بقوله : « وإنما أعتمد على ما عند الأعراب ، وإن كانوا لم يعرفوا شكل ما أحتاج إليه منها من جهة العناية والفلاية[٥] ولا من جهة التذاكر والتكسب ، ولكن هذه الأجناس الكثيرة ما كان منها سبعاً أو بهيمة أو مشترك الخلق فإنما هى مبثوثة فى بلاد الوحش من صحراء أو واد أو غائط أو غَيْضة أو رملة أو رأس جبل ، وهى فى منازلهم ومناشئهم ، فقد نزلوا كما ترى بينها وأقاموا معها . . وربما بل كثيراً ما يُبْتلون بالناب والمخلب وباللدغ واللسع والعض والأكل ، فخرجت بهم الحاجة إلى تعرف حال الجانى والجارح والقاتل

---

(١) الأجذاع : سيقان النخل تجعل سقفاً للخيمة.
(٢) الحيوان ٦/ ٣٠ .
(٣) طبقات الأمم لصاعد (طبع بيروت) ص ٤٥ .
(٤) المقدمة ص ٣٤٦ .
(٥) الفلاية : النظر العلمى .

وحال المجنى عليه والمجروح والمقتول، وكيف الطلب والهرب، وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر، مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء[١] ».

وكانت لهم عناية خاصة بالفراسة والقيافة، وهى تتبع الأثر فى الأرض والرمل، ولهم فى ذلك أقاصيص طويلة، وطبيعى أن تنمو عندهم القيافة ليتعقبوا من يضل منهم فى الصحراء، أو ليتعقبوا الأعداء الذين يغيرون عليهم وينهبون أموالهم ونساءهم فى غيبتهم عن أحيائهم.

وهذه الضروب جميعها من المعرفة ضروب أولية، تقوم على التجربة الناقصة ولا تؤسّس على قاعدة ولا على نظرية، فهم فى جمهورهم بدو، ليسوا أصحاب علم ولا نظر عقلى مؤسس على أسلوب علمى. ولعله من أجل ذلك شاعت عندهم العيافة وهى التنبؤ بملاحظة حركات الطيور، وقد اشتهر بها بنو أسد وبنو لهب، وكانوا يتيامنون بها ويتفاءلون إن جرت يمنة ويتشاءمون إن جرت يسرة، ولهم فى الطيرة أحاديث كثيرة، قال الجاحظ: « وأصل التطير من الطير إذا مرّ بارحاً (ميامناً) وسانحاً (مياسراً) أو رآه يتفلى وينتف، حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبتر زجروا عند ذلك وتطيروا.. فكان زجر الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطير، ثم استعملوا ذلك فى كل شىء.. وللطيرة سمت العرب المنهوش بالسليم والبرّية بالمفازة وكنّوا الأعمى أبا بصير والأسود أبا البيضاء وسموا الغراب بحاتم. والغراب أكثر من جميع ما يتطيّر به فى باب الشؤم»[٢]. ولإيمانهم بباب الطيرة كانوا يستقسمون بالأزلام والقداح، وهى سهام، كانو يكتبون عليها عبارات يصدرون عنها مثل الآمر والناهى والمتربص، وهى غير أزلام القمار وقداحه.

وكل هذا يدل على أن التسبيب العقلى عندهم كان ضعيفاً، وأنهم كانوا لا يحسنون ربطَ المسببات بأسبابها ربطاً محكماً، وهذا طبيعى فقد كانوا فى طور البداوة، فلم يكونوا يفهمون الارتباط بين العلة والمعلول، وكانوا لا يتعمقون فى بحث الأشياء، إنما كانوا ينظرون إليها نظراً عارضاً أو خاطفاً. يقفون عند الجزئيات، ولا يتعلقون بمدركات كلية أو نظرات شاملة فكل ذلك لا يطوف بالدائرة التى يحيونها دائرة الحياة الفطرية الساذجة. وحقاً شاعت عندهم الحكمة، ولكن لا بمعناها

---

(١) الحيوان ٦/٢٩٦.

(٢) الحيوان ٣/٤٣٨ وما بعدها.

الذى عُرفت به فى العصور الإسلامية وهو الفلسفة ، وإنما بمعنى الخبرة المحدودة التى تصورها عبارة من العبارات القصيرة . ومن أمثالهم « فى بيته يؤتى الحكم » وهو من يحكم بين الناس فى منافراتهم ومفاخراتهم وخصوماتهم . وربما اشتقت الكلمة من هذا المعنى ، فالحكم هو العاقل المجرب الذى يحقق بحكمه العدل ويمنع الخصام . وكذلك كانت الحكمة ، فهى تنبئ عن معرفة الشخص بالحياة ، ووقوفه على طرقها المستقيمة التى تهدى سبيل الرشاد .

وكثرت الحكم والأمثال عندهم ، وألفت فيها كتب ضخمة فى العصر العباسى ، من أشهرها كتاب « جمهرة الأمثال » للعسكرى و « مجمع الأمثال » للميدانى . واشتهر عندهم حكماء كثيرون كانوا يفصلون بينهم ، ويتناقلون ما يجرى على ألسنتهم من وصايا وتعاليم يفيدون منها فى حياتهم ، يقول الجاحظ : « ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء (الفطنة) لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومجاشع بن دارم وسَليط بن كعب بن يربوع . . ولؤى بن غالب وقس بن ساعدة وقصى بن كلاب . ومن الخطباء البلغاء والحكام والرؤساء أكثم بن صيفى وربيعة بن حِذار وهرم بن قُطْبة وعامر بن الظَّرب ولبيد بن ربيعة »[1] . وللقمان سورة فى القرآن الكريم ، ويقال إنه كانت له حكم معروفة عند الجاهليين جمعوها فى صحيفة تدعى مجلة لقمان ، ففى أخبار سُوَيْد بن الصامت أنه «قدم مكة حاجًّا أو معتمراً ، فتصدَّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام ، فقال له سويد : لعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله : وما الذى معك ؟ قال : مجلة لقمان ، يعنى حكمة لقمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضْها على ، فعرضها عليه ، فقال : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل منه : قرآن أنزله الله علىّ ، وهو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد ، وقال إن هذا القول حسن ، ثم انصرف ، وقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج ، فكان رجال من قومه يقولون : إنا لنراه مات مسلماً ، وكان قَتْلُه يوم بُعاث[2] » .

---

(١) البيان والتبيين (طبعة عبد السلام هارون) . ٣٦٥/١

(٢) أسد الغابة ٣٧٨/٢ .

وتمتلئ كتب الأمثال والأدب بما دار على لسان لقمان وغيره من حكماء الجاهلية من حكم، مثل قول أكثم: « مقتلُ الرجل بين فكَّيه » وقول عامر بن الظرب : « رب زارع لنفسه حاصد سواه » . وفى الشعر الجاهلى كثير من هذه الحكم ، وهى تُذْكَرُ فى ثنايا كلامهم من مثل قول طرفة فى معلقته :

أرى العَيْشَ كَنْزًا ناقصًا كلَّ ليلة ... ومَا تَنْقُصِ الأَيامُ والدَّهْرُ يَنْفَدِ

وممن اشتهر بهذه الحكم الأفوه الأودى ولبيد وعَبيد بن الأبرص. وفى خاتمة معلقة زهير طائفة كبيرة منها على شاكلة قوله :

وأعلمُ عِلْمَ اليومِ والأَمس قبله ... ولكننى عن علم ما فى غدٍ عَمِ
ومن لا يصانعْ فى أمور كثيرة ... يضرَّس بأَنيابٍ ويوطأْ بمنْسِمِ[1]
ومن لا يَذُدْ عن حَوْضِه بسلاحهِ ... يهدَّم ومن لا يَظْلِم الناس يُظْلَمِ
ومن هابَ أَسبابَ المنية يلقها ... ولو رام أَسباب السماء بسُلَّم
ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ ... وإن خالها تخفى على الناس تُعْلَم

وكان أكثر حكمهم يستقى من مروءتهم وسُننها التى وصفناها فيما مر من حديثنا ، وهى تجرى مجرى التعاليم التى ينبغى أن يأخذوا بها فى حياتهم . وقد وقف شعراؤهم كثيراً عند فكرة الحياة والموت والدهر وما يرمى به الناس . وكانوا يرون أنه لا مفر من الموت ولا حيلة منه . فلا ينفع إزاءه صحة ولا شباب ولا قوة . وكثيراً ما يذكرون مَنْ سبقهم إليه متخذين من ذلك عظتهم، يقول قُسّ بن ساعدة[2]:

فى الذاهبين الأَوَّلـ ... ـين من الشعوب لنا بَصَائِرْ
لمـا رأَيت مـواردًا ... للمـوت ليس لهـا مصادرْ
ورأَيت قـومى نحـوها ... تسعى الأَصاغرُ والأَكابر
لا يـرجعَنْ قـومى إلـ ... ـىَّ ولا من البـاقين غابر

(١) المصانعة : الترفق والمداراة ، يضرس : يعض ، المنسم : خف البعير .

(٢) حماسة البحترى ص ٩٩ وانظر البيان والتبيين ١/٣٠٩ .

أيقنـــتُ أنى لا محـــا لة حيث صار القومُ صائرْ

وكثيراً ما يتسعون بهذه النظرة ، فيخرجون عن إفناء الزمان لعشائرهم وقبائلهم إلى إفنائه للدول والملوك من حولهم ، فالليالى والدهر والأزمان فى كل وقت تهدم جداراً كبيراً إما من ملك أو دولة، وحتى الأنبياء وسليمان الذى سُخِّرت له الجن تلفتْ نفوسهم جميعاً وهلكوا كما هلك من قبلهم ، ويهلك من بعدهم[١] .

ودائماً يكررون أن الدهر بالمرصاد وأنه لا يؤمَنُ فى صباحه ومسائه، ولهم فى عتابه على فجيعته لهم بالأهل محاورات طريفة ، كقول زهير إن صح أنه له[٢] :

يا من لأقوامٍ فُجِعتُ بهم كانوا ملوك العُرْب والعُجْم
استأثر الدهرُ الغداةَ بهم والدهـــرُ يرمينى ولا أرمِى
لو كان لى قِرْنًا أناضلُهُ ما طاش عند حَفِيظةٍ سهمى[٣]
أو كان يعطى النِّصْفَ قلت له أحرزْتَ قسمك فالْهُ عن قسمى[٤]
يا دهر قد أكثرتَ فَجْعَتَنا بسَرَاتنـــا ووقَرْتَ فى العظم[٥]
وســـلبتنا ما لستَ مُعْقبنا يا دهر ما أنصفتَ فى الحكم

وعلى هذه الشاكلة كان لهم ضرب من التفكير فى حقائق الحياة والموت ، كما كان لهم حكم كثيرة مقتبسة من حقائق مجتمعهم ومعاشهم . وليس فى ذلك كله فلسفة ، ولكن فيه البساطة والفطرة وما يدل على حنكتهم وتجربتهم الحسية الواقعية .

---

(١) حماسة البحترى ص ٨٣ وانظر المفضليات ص ٢١٧ .
(٢) حماسة البحترى ص ١٠٥ وانظر الديوان (طبعة دار الكتب) ص ٣٨٥ .
(٣) الحفيظة : الغضب .
(٤) النصف : العدل .
(٥) السراة : السادة ، وقرت : صدعت .

٤

الدين[١]

كانت كثرة العرب فى الجاهلية وثنية تؤمن بقوى إلهية كثيرة تنبثّ فى الكواكب ومظاهر الطبيعة ، وفى أسماء قبائلهم ما يدل على أنهم كانوا قريبى عهد بالطوطمية (Totemism) إذ تلتف جماعة حول الطوطم تتخذه حاميها والمدافع عنها من مثل كلب وثور وثعلبة . وقد آمنوا بقوى خفية كثيرة فى بعض النباتات والجمادات والطير والحيوان ، وليس بصحيح ما يزعمه رينان من أنهم كانوا موحدين[٢] ، فقد كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى كما جاء فى القرآن الكريم ،وكانوا يتعبدون لأصنام وأوثان كثيرة اتخذوها رمزاً لآلهتهم ،ويفيض كتاب الأصنام لابن الكلبي فى بيان هذا الجانب . ويظهر أن عبادة النجوم والكواكب دخلت عندهم من قديم ، وقد جاءتهم من الصابئة وبقايا الكلدانيين ، كما جاءتهم من لدن عرب الجنوب الذين كانوا يرجعون بآلهتهم إلى ثالوث مقدس ، كما مر بنا ، هو القمر أو وَدّ ،والشمس أو اللات ، والزهرة أو العُزّى . ونراهم يقدسون النار ،ويظهر ذلك فى إيقادهم لها عند أحلافهم ،واستمطارهم السماء وتقديم القرابين إليها[٣] ويقال إن المجوسية كانت متفشية فى تميم وعُمان والبحرين وبعض القبائل العربية[٤] ، والمجوس كما نعرف ثَنَوية يؤمنون بإلهين يدبران العالم هما النور والظلمة أو الخير والشر .

وكانت عبادة الأصنام منتشرة بينهم انتشاراً واسعاً ، وقد صوروها أو نحتوها رمزاً لآلهتهم ، وقد يرون فى بعض الأحجار والأشجار والآبار ما يرمز إليهم ، ففى أخبارهم أن العُزّى كانت لغطفان ، وهى شجرة بوادى نخلة شرقى مكة ، وقد قطعها خالد بن الوليد ، وهو يقول :

---

(١) انظر فى ديانات الجاهليين الجزوين الخامس والسادس من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على
وكتاب روبرتسن سميث :
Lectures on the Religion of the Semites.
وبقايا الوثنية العربية لوهوزن : — Reste Arabis chen Heidentums. والأساطير العربية قبل الإسلام لمحمد عبد المعيد خان وتاريخ العرب القديم ترجمة فؤاد حسنين على .

(٢) راجع جواد على ٥/٢٠ وما بعدها و ٥/٥٣ وما بعدها حيث يذكر رأى رينان وآراء غيره من المستشرقين .

(٣) انظر الحيوان ٤/٤٦١ وما بعدها .

(٤) جواد على ٦/٢٨٤ وما بعدها .

يا عُزّ كُفْرانك لا سُبْحانكِ إنى رأيت الله قد أهانك[١]

ويشير القرآن الكريم إلى بعض آلهتهم ورموزها من أصنامهم وأوثانهم ، فيقول جل وعز : (أفرأيتم اللات والعُزّى ومَناة الثالثة الأخرى) ويقول سبحانه وتعالى : (ولا تذَرُنّ وَدًّا ولا سُواعاً ولا يغوثَ ويعوق ونَسْراً). وكانت عبادة اللات أو الشمس شائعة بين العرب الجنوبيين وفى الحجاز ، وكان معبدها فى الطائف . ويقال إنه كان صخرة مربعة بيضاء بنَتْ عليه ثقيف بيتاً وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه[٢] . ويتردد فى أسمائهم وهب اللات وعبد شمس، وعبد العزى ومثلها مثل اللات فى تعظيم قريش والعرب لها وتقديسها . وكانت مناة صخرة منصوبة على ساحل البحر بين المدينة ومكة ، وربما كان فى اسمها ما يدل على أنها ترمز إلى إله الموت ، فهى إلهة القضاء والقدر ، وكانت معظمة عند هُذَيْل وخُزاعة والعرب جميعاً وخاصة الأوس والخزرج إذ « كانوا يحجون إلى مكة ، ويقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رءوسهم . فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رءوسهم عندها ، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك »[٣] . وودّ كما قدمنا من الآلهة الجنوبية . وهو يؤلف مع اللات والعزى ثالوث الأب والأم والابن ، وكان صنمه بدومة الجندل ، وظل منصوباً هناك إلى أن جاء الله بالإسلام[٤] . وكان سُواع صنم هذيل وكنانة ، وهو حجر كانوا يعبدونه هم وعشائر كثيرة من مضر[٥] ، وربما كان فى اسمه ما يدل على أنه إله الشر والهلاك . ويغوث وهو صنم مذحج وعشائر من مراد وهوازن[٦] . وكان يعوق صنم هَمْدان وخولان وما والاهما من القبائل[٧] . وفى اسمه واسم يغوث ما يشير إلى أرواح حافظة . فمعنى يغوث يعين ، ومعنى يعوق يحفظ

(١) الأصنام لابن الكلبى ص ١٧ وما بعدها ومادة العزى فى معجم البلدان .

(٢) الأصنام ص ١٦ والمحبر لابن حبيب ص ٣١٥ ومعجم البلدان فى اللات .

(٣) الأصنام ص ١٤ وأخبار مكة للأزرقى (طبعة المطبعة الماجدية) ١/٧٣ ومعجم البلدان فى مناة والمحبر ص ٣١٦ .

(٤) الأصنام ص ٥٥ وما بعدها والمحبر ص ٣١٦ ومعجم البلدان فى « ود » .

(٥) الأصنام ص ٥٧ ومجمع البيان فى تفسير القرآن للطبرسى ١٠/٣٦٤ ومادة رهاط، حيث أقاموه ، فى معجم ما استعجم للبكرى ومعجم البلدان لياقوت .

(٦) الأصنام ص ١٠ ، ٥٧ والمحبر ص ٣١٧ والطبرسى ١٠/٣٦٤ ومعجم البلدان فى يغوث .

(٧) الأصنام ص ١٠ ، ٥٧ والطبرسى ١٠/٣٦٤ ويعوق فى معجم البلدان .

ويمنع . وكان نسر معبود حمير[١] ، وانتشرت عبادته فى الشمال، ويشير اسمه فى وضوح إلى الطائر المعروف باسمه ، وفى الطبرسى : «كان وَدّ على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر من الطير»[٢] .

ووراء هذه الأصنام التى ذكرها القرآن الكريم أصنامٌ كثيرة كانت تتعبد لها قريش والقبائل العربية فى الجاهلية ، ويقال إنه كان فى الكعبة عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة ثلاثمائة وستون صنما[٣] ، وكان أعظمها عند القرشيين هُبَل : «وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، وجعلتها له قريش من ذهب : وكان فى جوف الكعبة قدامه سبعة قِداح ، مكتوب فى أحدها : «صريح» والآخر : «مُلْصَقٌ». فإذا شكّوا فى مولود أهدوا إليه هدية ، ثم ضربوا بالقداح (السهام) فإن خرج (صريح) ألحقوه بأبيه، وإن خرج (ملصق) دفعوه . وقدْحٌ على الميت ، وقدح على الزواج .. وإذا اختصموا فى أمر أو أرادوا سفراً أو عملا أتوه فاستقسموا بالقداح عنده ، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه .. وعنده ضَرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله»[٤] . وباسمه كان ينادى أبو سفيان فى معركة أحد ويصيح : اعْلُ هبل .

ومن أصنام قريش المشهورة إساف ونائلة ، ويقال إنهما كانا شخصين أتيا أعمالا سيئة فمُسخا حجرين ، وعبدهما الناس ، وكان أحدهما ملاصقاً للكعبة ، وثانيهما فى موضع زمزم ، ويقال إن إسافا كان بإزاء الحجر الأسود وكانت نائلة بإزاء الركن اليمانى[٥] . ومن أصنامهم مَناف وبه سمى عبد مناف .

ومن الأصنام المشهورة رضا وتَيْم وشمس لتميم وذو الخَلَصَة وهو صنم خَثْعم وبَجيلة وأزد السراة ، ويقال إنه كان مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج ، وكان موضعه بتَبالة وله بيت يحجون إليه[٦]. وذو الشَّرَى وكان له معبد ضخم فى

---

(١) الأصنام ص ٥٧ والطبرسى ١٠/٣٦٤ ومادة نسر فى معجم البلدان واللسان وتاج العروس .

(٢) الطبرسى ١٠/٣٦٤ .

(٣) انظر الجزء الثانى من ابن الأثير فى ذكر فتح مكة .

(٤) الأصنام ص٢٨ والطبرسى ١٠/٣٦٤ .

(٥) الأصنام ص ٢٩ والمحبر ص ٣١٨ والطبرسى ١٠/٣٦٤ .

(٦) الأصنام ٣٤ ، ٤٧ والأزرق ١/٢٥٦ والمحبر ص ٣١٧ .

سلع (بطرا)[١] ويظهر أن عبادته قديمة ، وهو يقابل الإله ديونيسيوس عند اليونان إله الخصب والخمر .

وكانوا يتخذون عند هياكل هذه الأصنام والأوثان أنصاباً من حجارة يصبّون عليها دماء الذبائح التى يتقربون بها إلى آلهتهم ، وكانوا يقدسون هذه الأنصاب ويعدونها مقرًّا لبعض الأرواح . وفى القرآن الكريم : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) . والأزلام هى القداح كما مر بنا .

وفرق بين الصنم والوثن ، فالصنم يكون غالباً تمثالا ، أما الوثن فيكون غالباً حجراً ، وقد يسمى الصنم بالوثن ، يقول ابن الكلبى : « واستهترت العرب فى عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتاً ومنهم من اتخذ صنما ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت .. فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها ، فاتخذه ربًّا وجعل ثلاثة أثافىّ لقدْره ، وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك . وكانوا ينحرون ويذَبحون عند كلها ويتقربون إليها »[٢] .

وهذه البيوت التى اتخذوها لأصنامهم كان منها كعبات كبيرة يحجون إليها ككعبة ذى الخَلَصة وهى الكعبة اليمانية وكعبة الطائف وهى بيت صنمهم اللات ، وأشهر كعباتهم كعبة مكة حارسة الوثنية فى الجاهلية ، وهى التى وصلتنا عنها تفاصيل كثيرة توضح ما كانوا يتخذون فى حَجّهم إليها من شعائر . وكانوا يطوفون بها أسبوعاً ويسعون بين الصفا والمروة ، ويُظَنّ أنه كان على كل منهما صنم ، ويقال إنه كان على الصفا إساف وعلى المروة نائلة . وكانوا يقفون بعَرفة ويفيضون منها إلى المزدلفة ثم مِنى . وكانت إفاضتهم فى عرفة عند غروب الشمس ، أما فى المزدلفة فعند شروقها ، وكان يتولّى الإجازة فى الأولى بعض التميميين . وفى الكعبة الحجر الأسود وكانوا يتبركون به ويتمسحون بأركان الكعبة جميعها . ويقال إن طوافهم بأصنامهم كان سبعة أشواط وكانوا يختلفون فى طوافهم ، فمنهم من يطوف عرياناً وهم الحلة[٣] ، ومنهم من يطوف فى ثيابه وهم الحُمْس[٤] من قريش

---

(١) الأصنام ص ٣٧ وتاج العروس واللسان فى مادة الشرى .
(٢) الأصنام ص ٣٣ .
(٣) المحبر ص ١٨٠ وما بعدها .
(٤) المحبر ص ١٧٩ والأزرقى ١/١١٤ .

وكنانة وخزاعة، ويصور لنا الأزرقى طواف العريان بقوله : « يبدأ بإساف فيستلمه (يعتنقه) ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه ، فإذا ختم طوافه سبعاً استلم الركن (حيث الحجر أو الحطيم) ثم استلم نائلة ، فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس فيأخذها ، فيلبسها ، ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عُرْياناً[1] » . وقد أبطل الإسلام العرى فى الطواف ، كما أبطل كثيراً من تقاليد الحُمْس[2] . وكان من تقاليدهم رمى الجمرات فى مِنى وتقديم العتائر أو الضحايا وذبحها عند الأنصاب وكذلك تقديم الهدايا من الزروع والغلات ، وفى القرآن الكريم : (وجعلوا لله مما ذَرَأ من الحَرْث والأنعام نصيباً ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشُركائنا فما كان لشركائهم فلا يصلُ إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) . وتدل الآية الكريمة على أنهم كانوا يجعلون لله نصيباً ، ثم يعودون فيجعلونه لآلهتهم الصغرى أو لأصنامهم . وذكر القرآن الكريم البَحيرة والسائبة والوَصيلة والحام ، وأولاها الناقة أو الشاة يحرِّمون لبنها والانتفاع بها ، والثانية مايسيَّب (يترك) نذراً للآلهة فلا يمنع من ماء ولا كلأ ، والثالثة ناقة أو شاة تحمل سبعة أبطن ، فإذا كان السابع ذكراً ذُبح وأكل منه الرجال والنساء ، وإن كان أنثى استحيوه ، وإن ولدت توأماً : ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها وحرَّموا ذبحه على أنفسهم . أما الحام فالبعير ينتج عشرة أبطن من صُلبه ، ويقولون : قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

ويظهر أنه كانت عندهم طقوس كثيرة فى نذورهم وقرابينهم ، وقد هدمها الإسلام هدماً ، وأيضاً كانت هناك شعائر وطقوس كثيرة فى الحج نفسه لعل أهمها التلبية ، يقول ابن حبيب : « وكانوا يلبّون إلا أن بعضهم كان يشرك فى تلبيته ، وكان نسك قريش لإساف ، تقول : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك . وكان لكل قبيلة بعدُ تلبية ، فكانت تلبية من نسك للعزى : لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ما أحبَّنا إليك . وكانت تلبية من نسك للات : لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، كفى ببيتنا بنيَّة ، ليس بمهجور ولا بلية ، لكنه من تربة زكية ، أربابه من صالحى البرية . . . وكانت تلبية من نسك لَودّ :

---

(١) الأزرقى ١/١١٤ .

(٢) الأزرقى ١/١١٦ وما بعدها .

لبيك اللهم لبيك ، لبيك معذرة إليك . وكانت تلبية من نسك لذى الخَلَصة : لبيك اللهم لبيك ، لبيك بما هو أحب إليك . . .[١] ».

وجعلوا للحج أربعة أشهر معلومات ، سموها الأشهر الحرم ، وهى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وكان الحج إلى مكة فى ثالثها ، وفى اسمه ما يدل على أن الحج المعظم للكعبة القرشية كان فيه . وكانت هذه الأشهر حراماً عندهم فلا يستباح دم ، ولا تنشب حروب ، إلا ما كان من حرب الفجار ، وعُدّت انتهاكاً عظيماً لحرمات البيت . وكأنما كانت هذه الأشهر هدنة لهم ، ومُعيناً لبعدائهم عن الأماكن المقدسة فى الوصول إليها دون أن تُمَسّ نذورهم . وكانوا فيها يتجرون ويميرون ويقيمون أسواقهم كسوق عكاظ .

وكانت هناك جماعات تقوم على سِدانة بيوتهم المقدسة ، ويسمونها الحجابة ، وكانت فى مكة لبنى عبد الدار ، وبجانب هؤلاء السَّدَنة كهان كانوا يدّعون معرفة الغيب وأنه سُخِّر لهم طائف من الجن يسترق لهم السمع فيعرفون ما كُتب للناس فى ألواح الغد . وممن عُرف بذلك سَطيح الذئبى وشِقّ بن مصعب الأنمارى وعوف بن ربيعة الأسدى وسلمة الخزاعى وسواد بن قارب الدوسى وعُزّى سلمة[٢] . ونجد بجانب الكهنة كاهنات مثل الشعثاء والكاهنة السعدية والزرقاء بنت زهير وكاهنة ذى الخَلَصة [٣] . وفى أخبار الإسلام الأولى ما يدل على أنه كان يلحق ببيوت الأصنام بغايا ، وكانوا سبباً فى ثورة بحضرموت قضى عليها أمية بن أبى المهاجر لعهد أبى بكر الصديق[٤] .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أنهم كانوا يؤمنون إيماناً واسعاً بالأرواح وأنها تحل فى كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة ، وكان منها أرواح خيرة ، هى الملائكة وأرواح شريرة هى الشياطين . وفى القرآن الكريم : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستُكتب شهادتهم ويسألون) . فكانوا

---

(١) المحبر ص ٣١١ .

(٢) السيرة النبوية (طبع الحلبى) ١/١٥ والكامل لابن الأثير (طبع ليدن) ١/٣٠١ وأغانى (طبعة دار الكتب) ٩/٨٤ وطبعة الساسى ١٥/٧٠ والسيرة الحلبية (طبع بولاق) ١/٥ .

(٣) انظر مجمع الأمثال للميدانى ١/٩١ ، ١/٢٢٣ ، ٢/٥٤ .

(٤) المحبر ص ١٨٤ .

يزعمون أنها بنات الله ، وكانوا يعدونها — كأصنامهم — من شفعائهم عند الله وشركائه . وحكى القرآن اعتقادهم فى ذلك إذ يقول جلّ وعز : (ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) . وفى القرآن سورة للجن وكانوا يخافونها ويتعبدونها ويجعلون بينها وبين الله نسبًا ، يقول جل وعز : (وجعلوا لله شركاء الجن ، وخلقهم . وخرّقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون) . وفى أساطيرهم أو قل فى معتقداتهم أن الجن هى التى تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب فتهلك . يقول الجاحظ : وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب إما لكدر الماء أو لقلة العطش ضربوا الثور ليقتحم الماء . لأن البقر تتبعه[1] . فكانوا إذا امتنعت ظنوا ذلك من عمل الجن وإيحائهم . ولهم فيها كثير من الأساطير . عرض لها الجاحظ فى الجزء السادس من حيوانه . فتحدث عن مواطنها فى رأيهم وأنها تركب النعام والظباء والحشرات وأنها تتصوّر فى صور كثيرة ، وتتوالد مع الناس ، وقد تستهويهم وتقتلهم أو تخبلهم . ويُسْمَع ليلا عزيفهم وهتافهم . ومنهم من يألف الكهان ويخدمهم وهو الرَّئىّ . ومنهم من صورته على نصف صورة الإنسان ويسمى شِقًّا ، ولكل شاعر شيطانه الذى ينفث فيه الشعر . ومنهم السعلاة . والغول وهى من سباعهم . ويزعم تأبط شرًّا فى شعر يضاف إليه أنه لقيها فى ليلة مظلمة وهو يسعى فى فلاة ، فنازلها وما زال بها حتى قتلها وهو لا يعرفها . يقول[2] — إن صح أنه قائله — :

فلم أَنفكّ متكئًا عليها ... لأَنظر مصبحًا ماذا أَتانى
إذا عينان فى رأْسٍ قبيحٍ ... كرأْس الهِرِّ مشقوق اللسانِ
وساقا مُخْدَجٍ وشَواة كلبٍ ... وثوبٌ من عَباءٍ أَو شِنانِ[3]

وهؤلاء الوثنيون كانوا ينكرون الرسل وأن هناك إلهاً واحداً قال جلّ وعز : (وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عُجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن

---

(١) انظر الحيوان ١/١٨ وما بعدها .
(٢) الأغانى (ساسى) ١٨/٢١٢ .
(٣) مخدج : ناقص الخلق ، الشواة : الأطراف ، الشنان : جلد القربة البالى .

هذا الشيء يُراد، ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق) . وكانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور يقول جلّ ذكره : (وقالوا إنْ هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) وقال : (وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) وقال : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) .

ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلى حتى نجد استعداداً لفكرة الإله الواحد، وخاصة عند طائفة كانت تدعى باسم الحُنَفاء ، وكانت تشك فى الدين الوثنى القائم وتلتمس ديناً جديداً يهديها فى الحياة . يقول ابن إسحق : « اجتمعت قريش يوماً فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه ويَنْحرون له ويعكفون عنده ويديرون (يطوفون) به ، وكان ذلك عيداً لهم فى كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجيًّا، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتمْ بعضكم على بعض قالوا أجل، وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعبيد الله ابن جحش . . . وعثمان بن الحويرث . . . وزيد بن عمرو بن نفيل . . . فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجرٌ نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً ، فإنكم والله ما أنتم على شيء . فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ، فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية . . وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم . . وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر . . وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والمَيْتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان . . وقال أعبد ربّ إبراهيم »[1] ومعروف أنه أسلم وكان من الصحابة الأولين المقدمين .

وأكبر الظن أن كلمة حنيف معناها المائل عن دين آبائه كما يدل على ذلك اشتقاقها ، ولم يكن هؤلاء الحنفاء فى مكة وحدها ، فقد كانوا منتشرين فى القبائل ، إذ تعدّ كتب الأدب والتاريخ منهم قس بن ساعدة الإيادى وأبا ذرّ الغفارى وميسرة

(١) السيرة النبوية ١/٢٣٧ .

ابن أبي أنس أحد بني النجار في المدينة وعامر بن الظرب العُدْواني وخالد بن سنان العبسي وأمية بن أبي الصَّلْت الثقفي وعمير بن جندب الجُهَني . ويمكن أن ندخل فيهم كثيرين ممن حرَّموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام [١] مثل عبد المطلب بن هاشم وقيس بن عاصم التميمي وحنظلة الراهب ابن أبي عامر غسيل الملائكة . ولا نرتاب في أن صنيع هؤلاء إنما كان شكًّا في حياتهم الدينية، وكل ذلك يؤكد أن الوثنية الجاهلية كانت على وشك الانحلال ، فما انبلجت أضواء الإسلام ، حتى اعتنقه العرب ودخلوا فيه أفواجاً .

٥

اليهودية والنصرانية

لا نصل إلى العصر الجاهلي حتى نجد اليهود منتشرين في اليمن والحجاز [٢] ، والمظنون أنهم هاجروا من موطنهم الأصلي في فلسطين إلى الجزيرة على أثر اضطهادهم بالقيصر طيطوس (Titus) وهدمه للهيكل سنة ٧٠ للميلاد ، وكذلك اضطهاد القيصر هدريان بهم سنة ١٣٢ ففي هذه الأثناء فر كثير منهم إلى الحجاز ، وسقط غير قليل منهم إلى اليمن . وقد تكون هجراتهم أقدم من ذلك ، ولكن ليس بين أيدينا نصوص وثيقة ، نعرف منها بالضبط مراحل وفودهم على الجزيرة سواء في الحجاز أو اليمن ، وحتى هجراتهم في أيام طيطوس وهدريان غير واضحة تماما .

وقد استطاع يهود اليمن في أوائل العصر الجاهلي أو بعبارة أخرى في أوائل القرن السادس الميلادي أن يؤثروا في ملك من ملوك التبابعة هو ذونُواس ، وأن يدخلوه في دينهم ، وقد دفعوه دفعاً إلى التنكيل بنصارى نجران وتحريقهم ، وفي ذلك نزلت الآيات الكريمة : (قُتل أصحاب الأخْدود النارِ ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نَقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) .

---

(١) المحبر ص ٢٣٧ .

(٢) راجع في اليهودية بجزيرة العرب كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي الجزء السادس وكذلك كتاب مرجليوث :
The Relation between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam.

وربما كان السبب الحقيقى فى استجابته لليهود أنه كان يخشى من تغلغل النصرانية فى بلاده وأن يفتح ذلك الأبواب لنصارى الحبشة ، فيستولوا عليها بدون مقاومة . على أن الأحباش سرعان ما انتقموا لإخوانهم ، فأزالوا دولة ذى نُواس سنة ٥٢٥ وظلوا نحو خمسين عامًا ، حتى أجلاهم عنها أهلها بمساعدة الفرس .

ويظهر أن هذه الفترة التى قضاها الأحباش النصارى هناك كانت سببًا فى تفرق اليهود وخروج كثيرين منهم من اليمن وتشتتهم فى البلاد . ولكن ظلت بقايا هناك ، دخل كثيرون منها فى الإسلام من مثل كعب الأحبار ووهب ابن منبه ، ولهما فى الإسرائيليات التى شاعت بين المسلمين ومؤرخيهم أثر كبير .

وأهم من يهود اليمن يهود الحجاز ، وكانوا قبائل وجماعات كثيرة انتشرت فى واحات الحجاز : يثرب وخيبر ووادى القرى وتيماء ، وكان فى يثرب منهم عشائر كثيرة أهمها بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع وبنو بهدل ، وقد نزل بينهم الأوس والخزرج كما قدمنا ، وفرضت القبيلتان عليهم سيادتهما . وكانوا يشتغلون بالزراعة والصياغة والحدادة وصناعة الأسلحة ونسج الأقمشة ، وكانوا يعمدون عمدًا إلى الإيقاع بين القبيلتين العربيتين ، فاشتبكتا فى حروب دامية ، حتى جمعهما الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأصبح أفرادها بنعمة الله إخوانًا متحابين . وناهض اليهود الرسول ، فكانوا يثيرون معه مناقشات ومجادلات صورها القرآن الكريم ، وذهبوا يحاولون الوقيعة بين المسلمين ، ويؤلبون عليهم قريشًا وغير قريش ، مما اضطر الرسول عليه السلام إلى إجلائهم عن المدينة . وفى السيرة النبوية لابن هشام وطبقات ابن سعد ما يدل على أنهم كانوا يتدارسون دينهم فى دار ندوة لهم تسمى المدراس وأنهم كانوا يقرأون التوراة والمشنة والزبور (مزامير داود) بلغتهم القديمة العبرية ، ولكنهم اتخذوا العربية لغتهم اليومية ، ونظم فيها بعضهم شعرا عربيًا .

وعلى نحو ما تعرب يهود يثرب تعرب يهود خيبر ووادى القرى وفدك وتيماء ، واشتهر بينهم غير شاعر كالسموأل بن عادياء ، وقد قاوموا الإسلام وأظهروا له العداوة والبغضاء ، فحاربهم الرسول ، وانتصر عليهم ، ولم يلبث عمر أن أمر بإجلاء كل من ليس له عهد منهم ، فخرج جمهورهم من الجزيرة ، ولم يبق منهم إلا نفر قليل . وليس بين أيدينا ما يدل أى دلالة على أنهم خلفوا آثاراً واضحة فى الجاهليين ،

فقد ظل العرب الشماليون بعيدين عنهم وعن دينهم ، لا يتأثرون به فى قليل ولا كثير ، وإن حاول بعض المستشرقين إثبات هذا التأثير [١] .

وقد انتشرت النصرانية فى اليمن وشمالى الجزيرة الغربى والشرقى [٢] ، ويُظَنّ أن انتشارها فى اليمن بدأ منذ القرن الرابع الميلادى ، وكان من أهم الأسباب فى انتشارها هناك بعثات دينية كان يشجعها القياصرة ، ولعلهم أرادوا بذلك النفوذ إلى فرض سلطانهم على البلاد وتحول كنوز قوافلها إليهم . ولا نصل إلى العصر الجاهلى حتى نرى النصرانية منتشرة فى نجران وغيرها ويظهر أن نجران كانت أهم مواطنها ، وقد نكبهم ذو نواس نكبته المشهورة التى أشرنا إليها فيما أسلفنا ، ودخل الأحباش بقيادة أبرهة ، فنُدعمت النصرانية واعتنقها كثيرون ، وبُنيت لها كنائس فى غير مدينة . ومن أشهر كنائسها كنيسة نجران ، وفى السيرة النبوية أن وفداً منها قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم وكان فيه العاقب والسيد ، وهما الرئيسان السياسيان كما كان فيه أسقفهم وحَبْرهم أبو حارثة بن علقمة ، وكان « قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه بدينهم ، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه وموّلوه وأخدموه وبنوا له الكنائس » [٣] . ويقال إن أبرهة أنشأ كنائس كثيرة فى مدن اليمن ، واهتم بزينتها وزخرفتها ، أشهرها القليس فى صنعاء ، وهى تعريب لكلمة Ecclysia اليونانية بمعنى الكنيسة ، ويقال إنه « نقشها بالذهب والفضة والفسيفساء وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر . . وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام المجزّع والحجارة المنقوشة بالذهب . . ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنوس » [٤] . ويظهر أنه استعان فى بنائها بأنقاض من قصور ملوكهم السابقين ومعابدهم القديمة ، وقد حولها المسلمون إلى مسجد لا يزال قائما إلى اليوم .

وكانت النصرانية منتشرة بين عرب الشام من الغساسنة وغيرهم مثل عاملة وجُذام وكلب وقضاعة ، وكانوا على مذهب اليعاقبة أو المنوفيستيين ، وهم القائلون بأن

---

(١) انظر جواد على ٦/٩١ وما بعدها وكذلك ص ١٧٧ وما بعدها .

(٢) انظر فى النصرانية بجزيرة العرب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ، الجزء السادس ، والنصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية للويس شيخو .

(٣) انظر وفد نجران فى سيرة ابن هشام ٢/٢٢٢ .

(٤) مادة القليس فى معجم البلدان لياقوت وتفسير الطبرى ٣٠/١٩٣ .

للمسيح طبيعة واحدة وأقنوماً واحداً . ولذلك يسمون أصحاب الطبيعة الواحدة ، وصاحب هذا المذهب هو يعقوب البرادعى المولود حوالى سنة ٥٠٠ للميلاد ، وقد دخل فى مذهبه — كما قد منا — الغساسنة ومَنْ والاهم من عرب الشام .

ونفذت النصرانية إلى عرب العراق أيضا إلى تغلب وإياد وبكر ، وتغلغلت فى الحيرة على الرغم من ملوكها الوثنيين فكان يعتنقها بها العبادیون ، وأغلب الظن أنهم سموا بذلك تمييزاً لهم من جيرانهم الوثنيين ، فهم عباد الله . ولم يكونوا يعاقبة كعرب الشام ، وإنما كانوا غالباً نساطرة نسبة إلى نسطوريوس (Nestorius) المتوفى سنة ٤٥٠ للميلاد وكان يرى أن للمسيح طبيعتين أو أقنومين : أقنوم الناسوت وأقنوم اللاهوت . وقد تأخرت الهيئة الحاكمة من آل المنذر فى التنصر ، ويقال إن هندا أم عمرو بن المنذر ابتنت ديراً هناك ويقال بل بَنَتْه هِنْد بنت المنذر ، وقد دخل أخوها النعمان فى النصرانية ، وهو آخر المناذرة .

وكان الرقيق الحبشى الذى تزخر به مكة نصرانياً ، ويظن أنه كان بها جالية من الروم النصارى[١] ، ويقال إنه كان بها عبدان نصرانيان أصلهما من عين التمر[٢] وإنه كان بها جوار روميات[٣] ، ويقال إن شماسا زار مكة فى الجاهلية[٤] ، وكان يعيش فى مَرّ الظهران راهب مسيحى[٥] . ويزعم اليعقوبى أن قوما تنصروا من قريش قبيل الإسلام منهم ورقة بن نوفل وعتبة بن أبى لهب وعثمان بن الحويرث الأسدى[٦] . والمظنون أنه كان فى المدينة بعض النصارى ، وإليهم يشير حسان فى رثائه للرسول صلوات الله عليه — إن صح أنه له — إذ يقول[٧] :

فرحتْ نصارى يثربٍ ويهودُها لما تَوارى فى الضريح الملحَدِ

وكانت النصرانية منتشرة فى طيئ ودومة الجندل . وهى على هذا النحو كانت تختلف عن اليهودية التى لم تذع فى القبائل . على أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصور من تنصروا من العرب قبل الإسلام ، ونظن أنهم قاموا بتعاليم النصرانية قياماً دقيقا ،

---

(١) O'Leary, Arabia Before Muhammad p. 184.

(٢) أسباب النزول للواحدى ص ٢١٢ .

(٣) أسد الغابة ١/٣٨٧ ، ٤٠/ ٢٣٢ ، ٥/١٩٤ ، ٤٦٢ .

(٤) ابن هشام ١/٣٤٩ وأسد الغابة ٣/٣٧٥

(٥) السيرة الحلبية ١/٧٥ .

(٦) تاريخ اليعقوبى ١/٢٩٨ .

(٧) ديوان حسان (طبعة هرشفلد) ص ٥٩ .

فقد عرفوا الكنائس والبيع والرهبان والأساقفة والصوامع ، ولكنهم ظلوا لا يتعمقون فى هذا الدين الجديد ، وظلوا يخلطونه بغير قليل من وثنيتهم ، وربما كان مما يوضح ذلك خير توضيح قول عدى بن زيد العِبادى[١] :

سعى الأَعداءُ لا يأْلون شرًّا ... علىَّ وربِّ مكة والصَّليبِ

فهو يجمع فى قسمه بين رب مكة الوثنية ورب الصليب ، وكذلك كان أكثر العرب من النصارى ، فهم مسيحيون وثنيون فى الوقت نفسه . ومن يقرأ شعره لا يجد فيه فكرة التثليث المعروفة فى النصرانية .

والحق أن نصارى العرب فى الجاهلية إنما عرفوا ظاهرًا من دينهم ، وقلما عرفوا حدوده ، وقد سقطت إلى أشعارهم وأشعار الوثنيين أنفسهم كلمات ومصطلحات كثيرة منه ومن شخوصه وطقوسه ، فمنذ امرئ القيس وقوله[٢] :

يضيئُ سَناه أَو مصابيح راهبٍ ... أهان السَّليط فى الذُّبال المفتَّل

والشعراء يرددون ذكر الرهبان ومحارب كنائسهم ، يقول الأعشى[٣] :

كدُمْيَــــة صُوِّر محرابها ... بمُذْهَبٍ ذى مَرْمَرٍ مائرِ

وطالما تحدثوا عن نواقيسهم وقَرْعها فى أواخر الليل ، يقول المرقِّش الأكبر فى بعض شعره[٤] :

وتسمع تزقاءً من البوم حولنـــا ... كما ضربتْ بعدالهدوِّ النواقسُ[٥]

وعرض النابغة الذبيانى فى مديحه للغساسنة لتدينهم ، ولبعض أعيادهم كعيد الشعانين ويسميه السَّباسب إذ يقول فيهم[٦] :

رقاقُ النِّعال طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ ... يحيَّوْن بالريحان يوم السَّباسِبِ

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٢/١١١ .

(٢) ديوان امرئ القيس (طبعة دار المعارف) ص ٢٤ . و والسليط : الزيت .

(٣) الديوان (طبعة جاير) القصيدة رقم ١٨ .

(٤) المفضليات (طبعة دار المعارف) ص ٢٢٥ .

(٥) التزقاء : الصياح. والهدو : أوائل الليل.

(٦) مختار الشعر الجاهلى للسقا ص ١٦٢ .

وذكر أوس بن حجر عيد الفصح الذى كانوا يحتفلون به فيوقدون المشاعل ويضيئون الكنائس بالقناديل والمصابيح ، يقول[١] :

عليه كمصباح العزيز يَشُبُّه لِفِصْحٍ ويحشوه الذُّبالَ المفتَّلا

وجرى على لسانهم كثير من أسماء الأنبياء ، من مثل داود ، وكان يشتهر عندهم بنسجه للدروع المتينة القوية ،ومن ثَمَّ يقول سلامة بن جندل فى وصف بعض الدروع[٢] :

مُدَاخَلةٍ من نسج داود شَكَّهـا كحَبِّ الجَنا من أُبْلُمٍ متفلِّقِ[٣]

وقد يتحدثون عن ملكه فى صدر حديثهم عن الملوك البائدين وكيف يعتدى الدهر على الناس فلا يبقى ولا يذر.

ويكثر فى شعر الأعشى وأمية بن أبى الصلت وعدى بن زيد القصَصُ عن الأنبياء وسيرهم قصصاً نظن ظنًّا أنه موضوع . وهو إن قُبل من عدى النصرانى فإنه لا يقبل من الأعشى ، وكان وثنيا . وتبدو فى شعر بعض الشعراء نزعة إلى التفكير فى الحياة والموت على نحو ما أسلفنا فى غير هذا الموضع ، كما يبدو فى شعر نفر منهم إيمان بالله ، كقول عَبيد بن الأبرص فى معلقته — إن صح أنه له — :

من يسأَلِ الناسَ يَحْرِمـوهُ وسائلُ اللهِ لا يَخيبُ

ويزعم بعض المستشرقين أن الرواة الإسلاميين هم الذين وضعوا لفظة الجلالة فى شعر الجاهليين بدلا من كلمة اللات التى تتفق معها فى الوزن[٤] . وفى معلقة زهير :

فلا تكتمُنَّ اللهَ ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يُكْتَمِ اللهُ يعلم
يؤَخَّر فيوضعْ فى كتاب فيُدَّخَرْ ليوم الحساب أَو يعجَّل فيُنْقَمِ

---

(١) ديوان أوس ص ٨٤ .
(٢) الأصمعيات (طبعة دار المعارف) ص ١٥٠ .
(٣) مداخلة : محكمة النسج ، شكها : أحكمها ، الأبلم : بقلة لها قرون بها حب يابس .
(٤) جواد على ٦/٣٠٥ .

فالله يعلم خائنة الصدور وما تخفى ، ويعاقب كل إنسان على ما قدمت يداه عاجلا أو آجلا فى يوم الحساب ، وإذا صح البيتان لزهير كان ذلك دليلا على أنه ممن تحنفوا قبل الإسلام .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أن وجود النصرانية فى الجزيرة قد أثر فى الشعراء آثاراً مختلفة لا فى شعرائها الخاصين بل أيضًا فى بعض الشعراء الوثنيين ، وكان من آثار ذلك ظهور جماعات المتحنفين ، وتسربُ فكرة البعث والحساب إلى نفر من الجاهليين .

obeikandl.com